العربية والتبليغ حملاً على المعنى

أ.د. عبد الجليل مرتاض

(جامعة تلمسان ـ الجزائر)

مدخـل :

قبل معالجة هذا الموضوع الذي ظل يشغل بالنا منذ عقود خلت، ارتأينا أن نعرّج ولو إلماحًا إلى إثارة إشكالية التواصل اللغوي أو التبليغ لدى اللسانيين المحدثين، على أن نترك المقارنة الضمنية بين التراكيب العربية التي سنوردها لاحقا في مختلف المستويات التي لا تتنافى مع حمل العربية على مدلولها بدل دالها وحده، وبين هذه النظريات أو الرؤى اللسانية الغربية في عملية التبليغ، لنباهة المتلقي لهذا العمل، لأنه من غير الممكن أن نضع لكل تركيب تواصلي مخططا خاصًا به، لأن ما يجمع مثالا واحدًا ربما انسحب على كثير من الأمثلة، ومن ثم تجنبنا إثقال هذا البحث بالرسومات والبيانات ثقة في فطانة المتلقي المتخصص من جهة، وتركيز مجهودنا على ما هو أهم من جهة أخرى، ومع ذلك أحلنا على بعض المخططات التواصلية تارة أو اجتهدنا في تصور مخططات رأيناها تتناسب مع عملية التواصل أو التبليغ تارة أخرى، علمًا بأننا شعرنا بفراغ هائل في هذا المجال بالنسبة للبنية الداخلية للغة العربية التي لا تنساق في كل مرة أمام ما صنع من بيانات لإجراء عملية التواصل في اللسانيات التي بين أيدينا، مما يجعلنا نحس بضرورة استحداث لسانيات عربية تتمتع بخصوصيات ذاتية إلى جانب اشتراكها مع اللسانيات العالمية.

ـ عملية التواصل اللغوي

تعرّض جل اللسانيين المحدثين إلى إبراز عملية التبليغ كيف تتم بين مرسل (بكسر السين) ومرسل إليه (بفتح السين)، ويتقدم هؤلاء فرديناند دي سوسور الذي يرى أن

هذه العملية تقوم على عدة جوانب فيزيائية وفضائية وصوتية وفسيولوجية ونفسية،...[1]

أولا، تلك المسافة التي تفصل بين الباث والمتلقي، والتي تتكفل بنقل إعلام لغوي وتمثل الجانب الفيزيائي المتمثل في القوانين الصوتية وطرائق أضرب التواصل الذي يختلف بين لغة وأخرى تبعًا لتباين أصواتها وتشعُّب فونيمات كل واحدة منهما، علمًا بان الأصوات المنصوص عليها في كل لغة لا تمثل إلا الحدّ الأدنى فيها، فالدارسون العرب القدماء لاحظوا منذ عهد مبكّر أن كمية كبيرة من فوارق صوتية في التواصل باللسان العربي ليست بذات أهمية متشابهة في الاتصالات اللغوية، ومن ثم أدركوا أن فوارق صوتية لا يؤثر تباينها الصوتي من نطق إلى نطق في تباين دلالات هذه الكلمات ، وكل ما كان على هذا النحو من وحدات صوتية أضحى يُدعى لاحقًا في اللسانتيات الحديثة «فونيمة» مثال ذلك أن صوت أو حرف "K" في اللغة الإنجليزية له طريقة واحدة في النطق، ومن ثم فإنه لا يشكل إلا فونيمة واحدة، بينما هو في لغة أخرى كاللغة الهندية يُنطق بصورتين متباينتين، ومن ثم تمكّنه طاقته الصوتية من تشكيل كلمات أو وحدات مختلفة [2]، بل إن لغة شعب داغستان في إقليم القوقاز تتضمّن أربع عشرة مختلفة، لنطق حرف "K" مما يجعله قادرًا على أداء أربع عشرة فونيمة مختلفة مما يستوجب من المتكلم والمتلقي كليهما ألا يخلط بينهما إذا ما أراد أن تكون المرسلة الكلامية بينهما واضحة ومفهومة [3]، ويُخلص من هذا «إلى أن الفوارق الموجودة بين الأصوات ليست كلها ذات دلالة، وإنما فقط الفوارق الكامنة في الكلمات» [4].

ولقد أشار سيبويه إلى مثل ما نحن بصدده حين ذكر أن التسعة والعشرين حرفًا في

1ـ محاضرات في اللسانيات العامة ،ص:23-24 ، ف. دي سوسور، ترجمة يوسف غازي، مجيد النصر ، ط:1984 ، دار نعمان للثقافة، بيروت.

2 ـ انظر: الأصوات والإشارات، ص:179-1 كندراتوف ترجمة شوقي جلال ، ط:172, الهيئة المصرية العامة للكتاب.

3 - المرجع السابق ، ص:179.

4 ـ السابق ، ص:179.

العربية قد تؤول إلى خمسة وثلاثين حرفًا بحروف هن فروع لها واصفًا إياها بالكثرة، إذ يقول: «وهي كثيرة ، يؤخذ بها وتستحسن في قراءة القراءة والأشعار، وهي: النون الخفيفة والهمزة التي بين بين (أي هي ضعيفة ليس لها مكّن المحققة، ولا خلوص الحرف الذي منه حركتها) والألف التي تمال إمالة شديدة، والشين التي كالجيم، والصاد التي كالزاي، وألف التفخيم، يُعنى بلغة أهل الحجاز في قولهم: الصلاة والزكاة والحياة» [5]، بل يرى سيبويه أن هذه الحروف قد تصل إلى اثنين وأربعين، إذا أضيف إليها سبعة أصوات أخرى غير مستحسنة ولا كثيرة في لغة أو نطق من تُرْتضى عربيتُه ولذا فهي لا تستحسن في القراءات القرآنية ولا حتى الأشعار، وفي نظره أن هذه الأصوات هي [6].

1 ـ الكاف التي بين الجيم والكاف

2 ـ الجيم النبي كالكاف

3 ـ الجيم التي كالشين(عدا هذين الجيمين جيما واحدًا، وإلا فإن عدد الحروف يقفز إلى ثلاثة وأربعين).

4 ـ الضاد الضعيفة.

5 ـ الصاد التي كالسين.

6 ـ الطاء التي كالتاء.

7 ـ الظاء التي كالثاء.

8 ـ الباء التي كالفاء.

وهذه الأصوات التي أوصلها سيبويه إلى اثنين وأربعين جيدُها ورديئها لا يعرف إلا بالمشافهة المرتبطة بأحيازها ومخارجها من جهة ، وبناطقها من جهة أخرى، إذ كلما كان

5- الكتاب:4/ص:432 سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون ،ط:1975, الهيئة المصرية العامة للكتاب.

6- نفسه ، ص:432.

الناطق بها أكثر تحكّما في تحقيقها وبيانها وجد نفسه أقرب إلى الجودة منه إلى الرداءة وفق كل مُخرَج من مخارجها التي يحصرها سيبويه في ستة عشر مُخْرجًا .

والاتجاه نفسه نجده لدى ابن دريد الذي صرّح في مطلع جمهرته بأن الحروف التي استعملها العرب في كلامهم:أسماءً وأفعالاً وحركاتٍ، وأصواتًا تسعة وعشرون حرفًا مَرجعهنّ إلى ثمانية وعشرين حرفًا، لكنها قد تزيد على هذا العدد «إذا استعملت فيها حروف لا تتكلم بها العرب إلا ضرورة، فإذا اضطّروا إليها حوّلوها عند التكلم بها إلى أقرب الحروف من مخارجها» [7].

وأما ابن جني فلا يكاد يجيد عن سيبويه: «واعلم أن هذه الحروف التسعة والعشرين قد تلحقها ستة أحرف تتفرّع عنها، حتى تكون خمسة وثلاثين حرفًا، وهذه الستة حسنة، يؤخذ بها في القرآن، وفصيح الكلام، وهي النون الخفيفة، ويقال: الخفيّة، والهمزة المخفّفة، وألف التفخيم، وألف الإمالة والشين التي كالجيم، والصاد التي كالزاي، وقد تلحق بعد ذلك ثمانية أحرف، وهي فروع غير مستحسنة، ولا يؤخذ بها في القرآن ولا في الشعر ،...»[8].

وما يستنتج من أفكار سيبويه وابن دريد وابن جني وسواهم ممّن أشار إلى التعدّد الصوتي المرتبط بالتعدّد النطقي الشفهي سواء عند من تُرتضّ لغتُه أم لدُنْ منْ تُرفض أو تُأخذ منه بتحفظ شديد، فإن هؤلاء قد تبيَّنُوا أنّ أصوات اللغة شيء، وأصوات الكلام شيء آخر بمعنى انهم أدركوا البعد الفونولوجي للفونيمات أو ما قد يسمّى بالأصوات النوعية التي تشكل الوحدات اللغوية الدالة في اللغة العربية الشفهية، وبذلك يكونون قد لامسوا بما عُرف في القرن العشرين بعلم أصوات الكلام او الفونولوجية.

ثانيا، تتجسد الركيزة الأخرى في العامل الفيزيولوجي المتمثل في الصورة الصوتية السمعية المحقّقة بالنطق، والعامل النفسي المُبلور في الصور الشفهية والتصورات «ومن الأهمية بمكان ملاحظة أن الصورة الشفوية لا تمتزج بالصوت ذاته،وهي إلى ذلك صورة نفسية بقدر التصوّر الذي يرتبط به»[9]، ونجد دي سوسور يقسم الدارة التواصلية إلى :

7ـ جمهرة اللغة : 1/ ص:4, ابن دريد ـ ط:1351هـ مطبعة حير باد (بالأوفيست)

8 ـ سر صناعة الإعراب :1/ص:51 ابن جني، تحقيق مصطفى السقا، محمد الزفزاف، ابراهيم مصطفى عبد الله امين، ط:1/1954 مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة.

9 ـ محاضرات في الألسنية العامة ، ص:24

1 ـ جزء خارجي وآخر داخلي:

أ ـ الجزء الخارجي يتعلق باهتزاز الأصوات المنتشرة من الفم إلى الأذن.

ب ـ الجزء الداخلي ، ويشمل الأجزاء الباقية خارج الفم والأذن، ولعل ابن جني كان ممن صاغ مقاربة لهذين الجزئين وهو يفرّق بين الصوت والحرف: «اعلم أن الصوت عرضٌ يخرج من النَّفس مستطيلا متصلاً، حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثْنية عن امتداده واستطالته، فيُسمّى المقطع أينما عَرض له فرفًا، وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها،... ألا ترى أنك تبتدىء الصوت من أقصى حلقك ثم تبلغ به أيّ المقاطع شئت، فتجد له جَرْسًا ما ، فإن انتقلت عنه راجعًا منه أو مُتجاوزاً له، ثم قطعت أحسَسْت عند ذلك صَدىً غير الصدى الأول، وذلك نحو الكاف فإنك إذا قطعْت بها سمعت هنا صدى ما، فإن رجعت إلى القاف سمعت غيره، وإن جُزْت إلى الجيم سمعت غير ذَيْنكَ الأوَّليْن» (10).

2 ـ جزء نفسي وآخر غير نفسي:

أ ـ الجزء النفسي سبقت الإشارة إليه وهو كل ما اتصل بالصور الشفهية والتصورات، أي كل ما تعلق بدال صوتي وتصور ذهني، مضافًا إليه كل ما هو فاعل (تصور ← صورة) ومنفعل (صورة ← تصور).

ب ـ الجزء غير النفسي يشار به إلى كل الوقائع الفيزيائية التي لا سلطان للفرد المتكلم عليها، مثلما يُدَلُّ بها أيضًا على الوقائع الفيزيولوجية من نطق صادر عن هذا ومُرسلِ به في الآن ذاته إلى مستمع، وهذه الوقائع مفترض فيها أنها متموضعة في كل عضو من أعضاء نطقنا أو سمعنا، بمعنى أن الجزء غير النفسي يمثّل شبكة ثنائية معقّدة تعدّ خارج الباث والمتلقي معًا.

10- سر صناعة الإعراب :1/ص:6

3 ـ جزء فاعل وجزء منفعل:

أ ـ يُعدُّ الجزء الفاعل فاعلا كلّ ما انطلق من مركز الترابط عند أحد المتكلمين إلى أذن الآخر.

ب ـ أما المنفعل فيُقصد به كل ما ينطلق من حاسة سمعه إلى مركزه الترابطي.

أما جير ولد كاتز فيرى أن عملية التواصل اللغوي تنحصر إجمالاً فيما ينتجه الانسان من فونيمات خارجية بإمكان الآخرين ملاحظتها، وتنهض الفونيمات السمعية الخارجية ببث رسالة كلامية تلتقط بنيتها الصوتية والتركيبية بوساطة ظواهر فيزيائية جماعة من المستمعين يملكون سلفًا تجربة ذاتية من ذات تجربة آراء وأفكار باث الرسالة ذاهبا إلى أن المظهر الأساس لعملية، التواصل اللغوي يكمن في تناسب الأفكار والآراء الفائدة إلى المتكلم والمتلقي والتي لا تستقيم إلا عبر تبادل كلام في ضوء تجربة ذاتية حميمة بين الطرفين منتقدًا السلوكيين الذين كانوا يرون انحصار عملية التواصل اللغوي على مظاهر الظروف التواصلية الممكنة ملاحظتها عبر الأصوات والسلوك غير الكلامي للمساهمين في الظرف الكلامي والخصائص الفيزيائية للمثيرات المستعملة[11].

ولا يرى جير ولد كاتز عجبًا في الإدراك المشترك بين طرفين يتكلمان لغة طبيعية واحدة، ما دام أن كلاّ منهما يدرك بصورة ضمنية التنظيم القواعدي نفسه، كلا الطرفين بإمكانه إنتاج جمل جديدة لم يسبق للطرف الآخر أن لاحظها، لكن هذا الأخير لا يجد صعوبة تذكر في فهمها، وهنا يكمن سرّ الإبداع اللغوي لجمل لا منتهيّة «تكمن السمة الأساسية للموهبة اللغوية في إبداعيتها، فعند اكتساب الموهبة هذه يكتسب المتكلم المقدرة على إنتاج عدد من الجمل غير مثناه والمقدرة على تفهّمه حتى وإن لم يسبق له أن سمع هذه الجمل» [12] وبعبارة أكثر وضوحًا هناك تواصل لغوي لأن هناك متكلمين يتقنون استعمالاً لغويًا وقواعد متفقا عليها اجتماعيًا بمعنى أن التواصل اللغوي «مسار يكون

11ـ الألسنية (علم اللغة الحديث) ص:79 ،د. ميشال زكريا ،ط:1/1984 المؤسة الجامعية ، بيروت.

12ـ المرجع السابق ، ص:81.

المعنى الذي يقرن به المتكلم الأصوات هو نفس المعنى الذي يقرن به المستمع الأصوات نفسها... يختار المتكلم، لأسباب ليست ملائمة من الناحية اللغوية، مرسلة يريد إرسالها إلى الذين يستمعون إليه، فكرة يريد أن يلتقطوها، أمر يريد أن يعطيه إليهم أو سؤال يريد أن يطرحه عليهم، ويتم إرسال هذه المرسلة على شكل تمثيل صوتي للكلام بوساطة تنظيم قواعد لغوية يمتلكه المتكلم، وهذا الإرسال يصبح إشارة لأعضاء المتكلم النطقية، فينطق المتكلم بكلام يتّخذ الشكل الصوتي المناسب، وهذا الشكل الصوتي تلتقطه بدورها أعضاء المستمع السمعية،... ولأن المستمع يستعمل تنظيم القواعد نفسه الذي يستعمله المتكلم للإرسال، يكون إذًا لدينا المثل على التواصل اللغوي الناجح»[13].

إن عملية التواصل عملية بسيطة ومعقدة، بسيطة لأننا لا نشعر بصعوبتها في لغة الأمومة، ومعقدّة لأنها تتم عبر مواصفات فيزيائية وفيزيولوجية ونفسية وانفعالية ، فعلى مستوى لغة الأم لا نعبأ بمدى التوافقات المسبّقة بين المرسل والمرسل إليه، وعملية التواصل قد تتم حسب اللوحة البيانية :

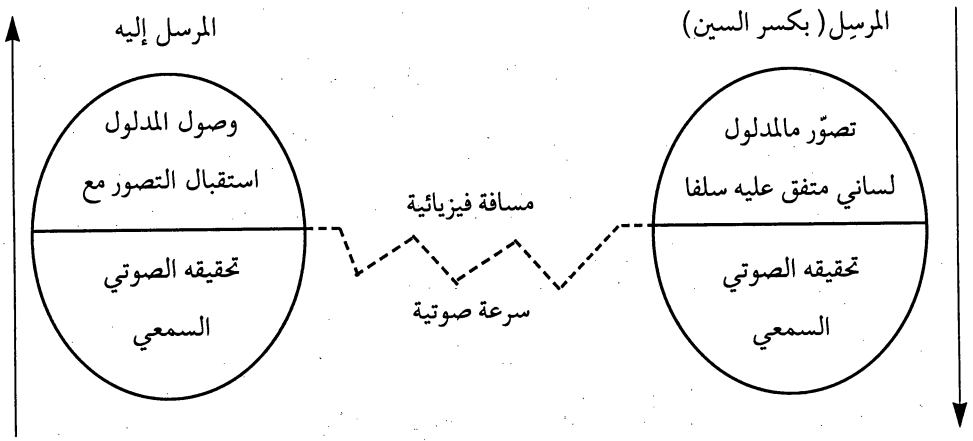

فالتوافق المتواضع عليه سلفا بين المرسِل والمرسَل إليه يدعى الارتباط الصوتي المتبادل Corrélation phonétique réciproque بينما التوافق بين المداليل في ذهن كل من المرسِل

13- نفسه ، ص:82-83

والمرسَل إليه يسمّى الارتباط الدلالي المتبادل Corrélation sémantique réciproque ، عن أن يربط هذين التوافقين في الحالتين، وفي كل الحالات مسافة فيزيائية معينة ومعقولة مرفقة بسرعة صوتية تختلف بحسب اختلاف الجنس والمتكلم وظروف ودواعي الإرسال.

وبعض المراجع ترسم عملية التواصل لدى الفرد وفق الشكل التالي[14].

عملية التواصل عند الفرد

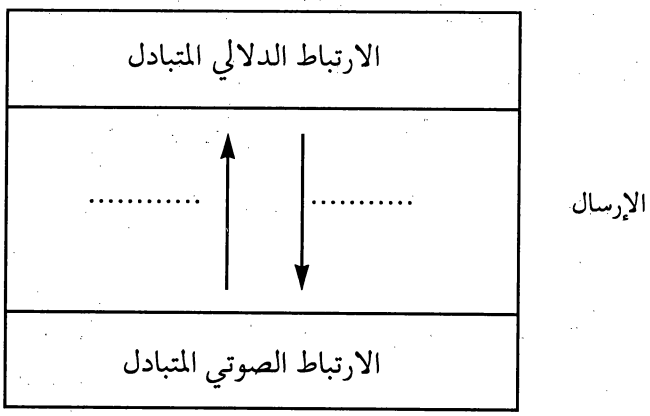

فالارتباط الدلالي المتبادل تبادل مشترك بين كل الناس، وفي كل اللغات، وما يخصّه بلغة دون لغة، هو الارتباط الصوتي المتبادل المألوف بين متكلمين في محيط لغة واحدة مشتركة، ومن ثم يتراءى لنا أن عملية التواصل اللغوي ترتكز على جانب دلالي وآخر صوتي، غير أن الجانب الثاني أهم من الجانب الأول، إذ ما يحوج الناس إلى تعلم لغة انهم مطالبون بإتقان الجانب الصوتي الذي يختلف نطقًا وتحقيقًا وفونولوجيًا بين لغة وأخرى أما ما تحت الجانب الصوتي فغير معجز ولا مقلق في عملية التعلم، لولا التباينات الصوتية والفونولوجية وما إليها من عادات كلامية لا صلة لها أساسًا بأية لغة من الداخل، لكان الناس غير محوجين إلى تعلم لغة أو لغات تعلمًا مكررًا، ومن ثم فإن تعلم لغة ما تعلّم لا معنى له في ذاته، وإذا كان لا بد من تعلم إحدى اللغات، فإن الأمر من قبلُ ومن بعدُ لا

14 ـ الالسنية (علم اللغة الحديث المبادئ والإعلام ص:50 ،د. ميشال زكريا ط:2/1983 المؤسسة الجامعية ، بيروت.

يعدو إتقان قواعدها التي تختلف اختلافًا جوهريًا فعلة بين كل لغة وأخرى حتى في إطار لغات مشتقة من أرومة واحدة،...

إذا طرق أذني كلمة فرنسية مثل Misérable التي لا تربطها أية دلالة مباشرة بالفعل Miser (راهن على شيء ما) فإني لا أتعلم منها أنها تعني بائسا أو معوزًا... الخ، لأن هذا المعني يعرفه كل ناطق بالعربية، ولذا فأولي ثم أولي ما يجب علي أن أتعلمه تلك الأصوات الصامتة والصائتة التي تتركب منها ،أما إذا ركبناها في جملة حقيقية أو مجازية مثل :

il faut être misérable pour agir ainsi فإننا نجد أنفسنا أمام نظام من القواعد المختلفة كل الاختلاف عن نظام قواعد العربية مثلا من حيث العناصر النحوية والصرفية والصوتية وحتى البلاغية ،لأننا لسنا مضطرين إلي ترجمتها أو فهمها مستقلة عن أي نص ب:

«يجب أن يكون بائسا لأن يتصرف هكذا»

عموما عملية التواصل اللغوي وسعها رومان جاكبسون في ستة عوامل :

1 ـ مرسل أو باث رسالة ما

2 ـ مرسل إليه يستقبل ما يرسل إليه من نظيره المرسل

3 ـ مرسلة خطاب تبليغ ما نص...)

4 ـ قناة (رسالة خطية ، تبليغ صوتي صفحة مكتوبة :...)

5 ـ سنن CODE (الصورة الصوتية السمعية المتداولة تواضعا في لغة واحدة بين المرسل والمرسل إليه).

6 ـ سياق CONTEXT (ما تؤديه المرسلة من محتوى ما)

إذ قال جاكبسون وهو يتحدث عن الوظيفة الشعرية،: «إذ يجب أن تدرس اللغة في جميع وظائفها المختلفة وقبل أن نعالج الوظيفة الشعرية لا بد من تحديد مكانتها من بين الوظائف الأخرى للغة، ولإعطاء فكرة عن هذه الوظائف رأينا انه لا بد من أن نعرج على إعطاء لمحة موجزة للعوامل المشكلة كل مسارٍ لساني، وكل فعل تبليغي كلامي، فالمرسل le destinateur

يرسل مرسلة un message للمرسل إليه le destantaire إلا أن المرسلة تستدعي قبل أي شيء، ولكي تكون عملية pur être opérant سياقا un contexte لمن يوجّه إليه (قد يسمى السياق أيضًا في مصطلح غامض شيئًا ما «المرجع» بحيث يكون هذا السياق ممكنا فهمه لدى المرسل إليه على أن يكون كلامًا او قابلا لأن يحوّل إلى ذلك، ثم تاتي المرسلة التي تقتضي سننًا un code مشتركًا كليًا أو اقله جزئيا tout ou au moins eu partie بين المرسل والمرسل إليه(وبعبارة أخرى بين المرمِّز encodeur والفاك le décodeur للمرسلة) وأخيرا تستدعي المرسلة اتصالاً un contact او قناة فيزيائية وارتباطًا نفسانيًا بين المرسل والمرسل إليه، الأمر الذي يتيح إحداث التبليغ واستمراره، وهذه العوامل المختلفة، وغير القابلة للتصرّف inaliénable للتبليغ يمكن أن توضح بيانيا حسب المخطط التالي»[15]:

سياث contexte (أو محتوى)

مرسل ..... مرسلة ..... مرسل إليه

اتصال Contact

سنن code

ويقول روبير اتسكاربيت : Robert escarpit «كل تبليغ يفترض إرسال واستقبالا لعلامات، أي التنوع الطاقوي لكل الأنظمة المشيرة إلى شيء آخر له وجود خاص به يشكل معناه موضوع تواضع قبلي بين المرسل والمستقبل، وهذا التواضع يمكن أن يكون مسجّلا في ذاكرة وراثية مثلما هو الشأن أحيانًا بالنسبة للصيحات والإيماءات الحيوانية، بل من الممكن كذلك أن يكون مؤسسًا على التدرّب ومن الأشياء التي تتفرّد بها اللغة الإنسانية أن هذا التدرب غير نقائي، وان التواضع يمكن أن يعاد فيه النظر ويعدّل في كل تبادل كلامي» [16]

إن الاختلاف الجوهري بين تواصل إنساني وآخر غير إنساني أن الأول، علاوة على

15 - Essais de linguistique générale :p :213-214 Roman Jakobson les édition des minuits 1963-paris.

16 - l'écrit et la communication que sais je P : Robert escarpit. édition bouchene. Alger 4 édition 1989.

امتلاكه علامة لسانية متفقًا عليها ، يصدر عن إرادة، وانه لا يكتفي بتبليغ شيء يريد تبليغ هذا الشيء [17]، ومن ثم فإنه رغم تقديرنا للرؤية الديسوسورية التي تجعل اللسانيات جزءًا مما سماه الحقل السيميولوجي العلم، فإننا من الصعب منطقيًا أن ننساق وراء هذه النظرية التي تجعل ما هو لساني ينضوي تحت ما هو غير لساني [18].

ويظهر أن عملية التبليغ أو نظريته فيها ما يجمعها جمعًا مبدئيًا وعامًا بالنسبة لأية ظاهرة تواصلية تجري داخل لغة من اللغات وبين جماعة متكلمة لها، غير أن ثمت خصوصيات تتعلق بما يمكن أن يسمى «الطاقة اللسانية الذاتية» لكل لغة على حدة، ونبّه غير واحد من اللسانيين قدمائهم ومحدثيهم على هذه الطاقة الذاتية.

فظاهرة التبليغ اللغوي أشد تعقيدًا وأبعد سطحية من العوامل الستة الجاكبسونية الشائعة، وأغور عمقًا من الجوانب الثلاثية الديسوسورية، لأنه في اعتقادنا أن الجانب الفيزيائي والفيسيولوجي والنفساني من تحصيل الحاصل، لأننا لا نحلم يومًا بان نطلب من ذي عاهة كلامية مطلقة أن يواصلنا بدلالات لسانية صوتية أسوة بذي جهاز كلامي سليم.

وليس معجزًا على متكلم لغة معينة ألا يدرك طاقة لغته الذاتية من الداخل ممثلا في المتواصلين بها من الخارج، إذ اللغة لا تحمل دائمًا في مدلولها الذهني على دالها الصوتي السمعي في مستوييه الإفرادي او التركيبي.

اللغة العربية قد تعبّر بدال صوتي سمعي واحد على اكثر من مدلول، نجد فيها:

- «عسعس الليل / أقبل / أدبر».

وفي الذكر الحكيم:

«إن الساعة آتية أكاد أخفيها» / أظهرها، وليس من الإخفاء

وقد يكون الدال واحدًا، والمداليل مختلفة:

---

17 ـ راجع المرجع السابق ، ص:5-6

18 ـ انظر اللغة والتواصل ،ص:77 عبد الجليل مرتاض ،ط:1/2000 دار هومة ، الجزائر.

«وجدْتُ الضالة ، وجدت في الغضب، وجدت في الحزن، وجدت في الاستغناء،...» ثم يجعلون الاسم في الضالة «وجودًا» و «وجدانًا» (بكسر الواو)، وفي الحزن «وجْدًا» ، وفي الغضب «موجدة» وفي الاستغناء «وُجْدًا» ،... والغريب أن المعنى الدال على وجدان الضالة فعله(وجد) متعدّ، لأن الضالة من ضلّ، وهذا الأخير متعدّ أيضًا، بينما المعاني الباقية أفعالها التي هي فعل واحد(وجد) لازمة، لأن غضب، وحزنَ، واستغنى أفعال لازمة.

وينبغي ألا ننسى العادات الخطابية التي تعودتها الطبقات المالكة للغة ، فلو أن قارئا قرأ قوله تعالى ﴿ **فلا يحزنك قولهم ، إنا نعلم ، ما يسرون وما يعلنون** ﴾ تاركا طريق الإبتداء ب «إنّا» (بكسر الهمزة) وأعمل القول فيها بالنصب على لغة أو مذهب من ينصب أن بالقول كما ينصبها بالظن ،كقول الحطيئة [19] .

إذا قُلْتُ أني آيبٌ اهْل بَلْدةٍ

لقلب المعنى عن جهته، وحمله مالا طاقة به ، وجعل النبي عليه السلام محزونا لقولهم : إن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون، وهذا كفر ممن تعمّده، بل يكون الكفر اعظم لو فهمت بمعنى «لعل» كما في قوله تعالى: ﴿ **وما يُشعِرُكم أنها إذا جاءت لا يؤمنون** ﴾،

لا يشك أحد في أن عملية التواصل اللغوي لا تتم بين متواصلين في غياب عدد ادنى مشترك من الألفاظ والأفكار يملكهما كل منهما في الان ذاته، لأنهما رغم انتمائهما إلى مجتمع لغوي واحد، فإنهما قد يتباينان، باعتبار اللغة نظامًا لسانيًا ينتمي إلى نطاق عامّ نفسي ـ جماعي، في حين أن الكلام نسق فردي ينتمي إلى مجال عام نفسي ـ فيسيولوجي، وليس للفرد أي سلطان قاهر على تغيير علامة لسانية خارج إرادة جماعته.

أجل، كل متكلم له إرادة تواصلية لقول شيء يجد نفسه أمام عقبات، منها ما يشترك فيها مع سائر المتكلمين والفاعلين والمتلقين ومنها ما ينفرد فيها وحيدًا دون سواه: إنه مشترك لأنه ينهل من نفس جنس ما تتواصل به المجموعة اللسانية التي تطبق لغة معينة وتتمسك بها

19 ـ انظر أوضح المسالك ،ص:70 ابن هشام تحقيق محي الدين عبد الحميد ،ط:1949 دار السعادة، مصر.

وتحترمها وهو وإن كان غريبًا عن هذه المجموعة انتماء وقوميًا، فإنه لن يكون كذلك لسانيًا، بل هو أكثر التزامًا باحترام هذه اللغة التي يتواصل بها من أصحابها الأصليين فيها؛ وهو مشترك لأنه يجري عليه ما يجري على سائر المتكلمين، فهو لا يملك وسيلة نوعية للتبليغ تختلف عن سواه من الناطقين بها، إذ هو ملزم كغيره خلال الممارسة الفعلية بما أسماه أندري مارتيني بالتمفصل المزدوج انطلاقًا من التمفصل الأول الذي يبْني ملفوظاته في وجدان دالة متتابعة، ومن التمفصل الثاني انطلاقا من وحدات صوتية متتابعة دنيا غير دالة لكنها متمايزة، وهو أولاً وأخيرًا يشترك معهم في التواضع والاصطلاح مثلما يتشارك معهم في الاعتباط والتاريخ والعادات والثقافة ولربما الاجتماع[20].

إن ارتباط الفرد المتكلم بعقد لغوي جماعي سابق عليه وجودًا يمنحه أو على الأقل يردعه، من استقلال ذاتي مطلق، لأنه مرتبط في تواصله مع الآخر وليس مع ذاته، حتى إنه لا يكاد يتصرف تصرفًا حريًا في العبارات العامة الجاهزة سلفًا في اللغة أي تلك التي اعتاد المتواصلون بها أن يستعملوها بنحو آخر غير النحو الذي يرومه، وهذه التواصلات الجاهزة موروثة في كلامنا مثلما هي موروثة في لغتنا، وهي متمظهرة في تراثنا الفصيح مثلما هي متفشية في خطاباتنا اليومية.

غير أن هذا العقد غير الموقع لا يمنع المتواصل من حق التصرف لينتقل من الممكن المتمثل في تلك الكمية المخزونة من المورفيمات والعناصر اللغوية الأخرى برمتها إلى مجازات بعيدة ونسوج جديدة على غير مثال، إلى درجة أن بعض اللغويين لا يتردّد في أن يعرّف القواعدية La grammaticalité كساحل او حافة من المستحيلات، لأنه حيث ينتهي الممكن يبتدئ المستحيل [21].

ومن وجهة نظرية صرْفٍ أن قواعد اللغة المصوغة في كفاءة لا تولّد إلا ما يقال «مع استبعاد ما لم يُقلْ، لكن الحدود بين الاثنين ليست محدّدة بوضوح، إنّ الممكن ينصهر

20 ـ الظاهر والمختفي (طروحات جدلية في الابداع والتلقي) (قيد الطبع)ص:24-25 عبد الجليل مرتاض

21 - pour comprendre la linguistique ,p :149 Marina Yaguello , édition du seuil ,paris 1981.

Sefond في المستحيل، حتى إن القواعدية مسألة درجة، ومما يطرح المشكل المعياري أن المتكلم Le sujet parlant الذي يقرر، وهو يوظف كفاءته، بأن مثل هذه الجملة او تلك نحوية او غير نحوية يعتمد في ذلك ضمنيًا على المعيارية، والحالة هذه تكون القاعدة متأثرة من قبل عوامل خارجية مستندة جزئيًا على ضوابط نموذجية مثل المدرسة؟ هل المعيارية الدلالية ما هي إلا انعكاس لرؤية العالم الذي يريد، من اجل أن يكون هناك معنى ينبغي أن يكون إحالة Référence الشيء الذي ينتج عنه بحق الشعر؟ هل يكون من الطبيعي دلاليًا في هذه الحالة للملفوظ الذي يتلفظ به المتكلم وسيلة ليست قادرة على التأويل لأنه لا يجد بواسطتها مُحالاً إليه Réfèrent في الواقع كما يمثُل له في وعيه، كل واحد له الحق في خلق عالم من المعنى او آخر ليس له معنى،...» [22].

وفي إطار المعنى والدلالة صرّح القديس أوغسطين في إحدى نظرياته بأن «الدلالة هي عبارة عن شيء، زيادة على كونه حاملا للمعاني، يثير بذاته في الفكر أشياء أخرى» [23] لو تصورنا أي كلمة من الكلمات لتناسبت مع رؤية اوغسطين: الجبل، البحر، الليل، حيوان أليف، حيوان مفترس، غابة... بمعنى أن كل علامة لسانية علاوة على كونها دلالة تحمل واقعا متواضعا عليه في ذاتها قابلة لأن تفكّك من الداخل إلى عوالم من التصورات والأفكار الحدسية البعيدة التي لا مرجع لها تحال إليه وتتحدد به، ولذلك قال جوتلوب فريجة: " ففي نظام تام من الرموز وجب أن يقابل كل معنى محدد عبارة خاصة، لكن اللغات الطبيعية لا تف بهذا المطلب، وهي بعيدة عن هذا الشرط، ونكون سعداء متى وجدنا في نص واحد لفظًا له دائمًا نفس المعنى»[24].

إذا ما أردنا أن نشير إلى معنى، وليكن «س» فإننا نجد أنفسنا ملزمين بصيغة معنى العبارة س» وإذا ما لاح لنا أن نتحدث في تواصل لغوي غير مباشر لنحكي كلام غيرنا، فإننا بعبارة

22 ـ المرجع السابق ، ص:149.

23 ـ المرجع والدلالات في الفكر اللساني الحديث ،ص:16 إفريقيا الشرق ـ الدار البيضاء.

24 ـ المرجع نفسه ، ص:87.

بسيطة لا نتحدث إلا عن تواصل الغير وبالتالي فإننا نشعر بالأسى لأننا لا نحيل إلا على مرجع تواصلي دلالي تعود غيرنا الاتصال بع قبلنا، فضلا عن التواضع أو الاصطلاح المتعارف عليه فيما بينهم، وبسؤال برئ ، فهل نتواصل بالشيء المتواطأ عليه نفسه دون حق التصرف؟ وبعبارة أخرى، فهل تتقاطع التواصلات الدلالية كلها في نقطة واحدة أيًا كان تعدادها مثلما هو مبيّن في الشكل أدناه؟

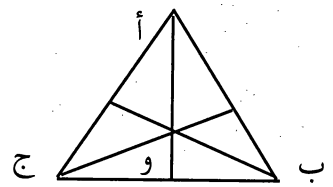

علما بأن هذا الشكل الثلاثي ذا الأضلاع المتناظرة لا يمثل كل التواصلات اللغوية الممكنة، بل هو مقاربة لما يمكن أن يحدث بين متكلمين، وبسؤال آخر أكثر براءة: فهل نحن نتكلم بمعاني ام بمعاني معانٍ؟ وإذا سلمنا بهذا، فهل ستصير تواصلتنا يومًا مرجعًا دلاليًا لغيرنا؟ ولمحاولة الخروج أو التملص من هذا المأزق الذي تورطنا عفويًا فيه، فلا يسعنا إلا أن نقول: لا تواجُد لتواصلات مستقلة خارج الأجيال ، ما اللغة إلا تناسل، إذا إنعدم تناسلها زال نسلها، غير أن ثمت أصولاً تبيح لك الإبداع داخلها ولا تجيز لك أدنى تصرّف فيها، وفروعًا بإمكان موهبتك أن تسبر غورها وتذهب فيها مذهبًا بعيدًا، إذ ما يسمى بأية مدرسة لغوية أو مذهب لساني لا يجرؤ على مس أصل ثابت فيها متواطأ عليه تواطأً نهائيًا، من منا لا يذكر قول أبي عمرو بن العلاء الشهير:«لولا لي أن اقرأ إلا بما قرئ به لقرأت حرف كذا أو حرف كذا» [25] ومن منا لم يطلع على تلك المشادات اللغوية العنيفة بين شعراء ولغويين؟ فالفرزدق الذي قيل فيه «لولا الفرزدق لذهب ثلث اللغة » لم يسلم من هجوم نحاة ولغويين في قوله:

وعضّ زمان يا ابن مروان لم يدعْ

من المال إلا مُسحتا أو مُجلّفُ

25 ـ معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار:1/85 الذهبي تحقيق جاد الحق،ط:19659 دار الكتاب، القاهرة.

على الرغم عن طمأنة أبى عمرو إياه: «أصبت هو جائز على المعنى على انه لم يبق سواه» [26] وهذا النابغة الذبياني الذي انتقد ذات يوم حسان بن ثابت في قوله:

لنا الجفنات الغُرّ يلْمعن في الضحى

وأسيافنا يقْطُرن من نجْدة دما

على أن حسان قلّل جفانه وسيوفه، لم يسلم من انتقاد اللغويين له، ذاهبين إلى انه أساء في قوله:

فبتّ كأني ساورتني ضئيلة من الرُّقش في أنيابها السُّمُّ ناقعُ

لأنه كان من حق «ناقع» أن تكون منصوبة على الحال، بل أخذ عليه البعض استعماله كلمتي «السم» و «الشهد» مضمومتين في السين والشين، على أن الرفع لا يمت بصلة إلى بني منطقته التي اشتهر عنها الفتح فيهما [27].

وما أشرنا إليه أعلاه بشأن تواصلات لغوية فردية لا يجعل ذهننا شاردًا بأنها تواصلات سليقية طبيعية ذات طابع لساني عفوي بريء ، ومن ثم فإننا نعدّ كل تواصل من هذا المستوى بين المرسل والمرسل إليه تواصلا دالا على أضرب ومستويات «إذ ثمت فرق بين محاولة إخضاع المتكلم إلى الخطاب العام أو الغالب الذي عليه الجماعة المتكلمة، وهذا لا تنكره حتى النظريات اللسانية الحديثة،... وبين ما يختلف الناس فيه فعلا لا يمكن تجريح متكلم او وصف خطابه باللحن، وتنزيه متكلم آخر ووصف كلامه بشتى الصفات المستحسنة التي لا فائدة من ورائها ،...» [28] .

وفي ضوء ما نحن فيه من علاقات إرسال بين مرسل ومستقبل أن زيادًا لما صاح مفزوعًا في إحدى المناسبات: «افتحوا سيوفكم» أجابه أحد الشعراء(يزيد بن مفرِّغ):

---

26 ـ الموشح،ص:161 ، المرزباني، تحقيق محمد البجاوي،ط:1959, دار نهضة مصر.

27- اللسانيات الجغرافية في التراث اللغوي العربي، ص:126-127 عبد الجليل مرتاض ،ط:2003 دار الغرب ، وهران

28- المرجع السابق ، ص:130.

ويوم فتحت سيفك من بعيد أضعت، وكل أمرك للضياع

بينما قال غلام لزياد: «اهدوا إلينا همار وهش» قال له: أي شيء تقول ويلك؟ كرّر له مرة أخرى بصورة صوتية سمعية مختلفة عن الأولى:«اهدوا إلينا أيْرًا وهو يريد عيرا فانتفض زياد ، ويلك ! كلامك الثاني شرّ من الأول وفي السياق نفسه قال خلف الأحمر الإعرابي: «ألقي عليك بيتا ؟» قال: على نفسك فألقه وهنا لا نحسب أن في الأمر تطورًا دلاليًا، ليست اللغة أدوات وآلات ميكانيكية، كل ما في الأمر أن القيمة الدلالية للوحدة اللسانية المجردة تكسب وجودها، وتتخذ طابع استقرارها من خلال سياق نصّي معيّن، مثال ذلك أن الوحدات اللسانية التي استعملها شاعر كامرئ القيس في وصف الليل:

وليل كموج البحر أرخى سدولـه عليَّ بأنـواع الهمـوم ليبتلـي

فقلـت لـه: لما تمطـى بصُلبـه وأردف اعجـازًا وثـاء بكلكـل:

ألا أيها الليل الطويل: ألا انْجـَلِ بصبح، وما الإصباح منك بأمثل

لكل منها مدلول مستقر في العربية، لكنه ليس مستقلاً إلا بفعل الاستعمال الزمني في سياق دلالي، لأن مجموع هذه الوحدات التي استعملها هذا الشاعر، لا يمنعها هذا التوظيف النوعي من أن تأخذ معنى جديدًا في كل استعمال جديد من مستعملين آخرين، بصرف النظر عن طبيعة ومقامات هذه الاستعمالات، وعن صفات مستعمليها، وعن الحقول الدلالية التي تستعمل فيها، وعن بنياتها التصورية في قربها أو بعدها .

والذي يتبادر إلى ذهننا أن تداول مستعملين متباينين زمانًا ومكانًا وثقافات وتخصصات وأعمارًا،...لا يعني في نظرنا إلا أن هذه الوحدات اللسانية قابلة للتفكيك اللامتناهي في دوالها نسبيا ومداليلها مطلقًا، ولئن كانت قليلة في الأولى أو على الأقل يمكن لحظها فونيتيكيا وفونو لوجيا:

راح(بتغليط صوتي الراء والحاء) راح (بترقيق الراء والحاء) فإنها لا نهائية في الثانية، ويصعب ضبطها.

ومما وقفنا عليه قريبا مما نحن فيه أن هلمسليف كان يلح على أن «الوحدات الدالة الدنيا ينبغي أن تكون قابلة للتفكيك إلى وحدات أقل صغرًا أو إلى صور المحتوى، تماما مثلما هي قابلة هذا التفكيك إلى وحدات صوتية أو على صور التعبير» (29) مما جعل جورج مونان يعلق: «هذا ليبرّر نظريته التي لا سند لها للتماثل المورفيمي isomorphisme'l لكل البنى اللسانية» (30).

ونحسب أن الوحدة اللسانية قابلة للتفكيك في شكلها ومحتواها، ونعتقد أن ما يسمى باعتباط العلامة اللسانية لا يكمن إلا في هذه الاحتمالية اللانهائية للتفكيك على مستوى الدال والمدلول:

1 - راح يروح رواحًا: إذا غدا او رجع

2 - راح إلى الجمعة: ذهب

3 - راحت الماشية رجعت عشية إذا كانت سرحت او سامت صباحًا

4 - راح الرجل رواحا: مات

5 - راح الشيء: فاحت رائحة.

6 - راح الشيء: أنتن

7 - راح فلان الريح يراحُها روْحا: اشتمّها

حيث تنطق المورفيمات(1-4) بالتفخيم في صوتي الراء والحاء في حين تنطق المورفيمات (5-7) بالترقيق الصوتي فيهما (الراء والحاء).

ولننظر إلى مثال آخر في التفكيك الدلالي للعلامة من نوع: الدال ذاته/ المدلول غيره:

---

29 - clefs pour la linguistique p. 140.Georges mounin édition Seghers . paris 1971.

30 نفسه ص:140

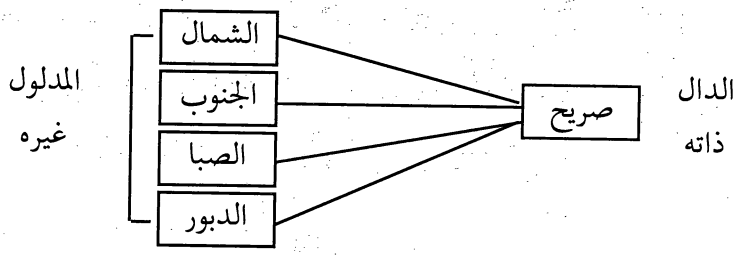

وبفضل هذا الفك المتوالي للعلامة اللسانية تتطور اللغة الإنسانية، وليس بتطور الإنسان، إذ لا علاقة للغة بكل هذا، وإلا كان الإنسان دالاً واللغة مدلولا له والعكس بالعكس، هذه المقولة «اللغة تتطور بتطور الإنسان وتخمل بخمو له... أو كلام من هذا» ليس لها أية مصداقية في نظرنا، بل أية لغة تتطور بفضل الاحتمالات اللانهائية لقابلية التفكيك أو الفك في مداليلها السابقة وفي دوالها بصورة صوتية سمعية غير مطلقة.

وإذا كنا نسلّم بأن التفكيك عملية تشمل كل العناصر اللغوية من أدناها إلى أقصاها إفرادًا وتركيبًا، نحويًا ولكسيكيا وبنيويًا وهنا تكمن الطاقة الذاتية لكل لغة، وان اللغة نظام من الإشارات المتميزة أو مركبة من مجموعة عناصر ينتمي الواحد منها إلى الآخر انتماء حميميا لتكوين منظومتها الكلية ، فإنه لمن الصعب علينا أن نسلّم بان إشاراتها المتميزة متطابقة مع أفكار متميزة ولنسْتحضِر أمثلة بنيوية داخل كل لغة طبيعية او مكتسبة تعلّما نتقنها لنرى مدى استبعاد هذا التسليم.

غير أننا في الوقت نفسه نتفق إجبارًا مع المقولة التي تدّعي أن نظامًا لسانيًا يختل كليًا أو يتأثر جزئيًا كلّما حُذف أو غيّر أحد عناصره، ومع ذلك فإن المنظومة اللسانية أبعد من أن تكون لعبة شطرنجية، لأنها فوق بنياتها جميعا، إذ من الخطأ الفادح أن نقارن تركيب عناصر لسانية بعناصر كيماوية أو بيولوجية أو حتى عددية، لأن اللغة وقوانينها الصارمة شيء والتعبير بها شيء آخر إننا لا ننكر ما يحدث من مغالطات تبليغية خطيرة أحيانًا ولو بحذف صائت قصير هو:

هذا قاتلٌ أخاك / هذا قاتلُ أخيك

هذا مكسّرٌ الجدار/ هذا مكسرُ الجدار

في اللغة العربية أمثلات شتى من هذا القبيل لبيان أهمية الحركات الإعرابية فيها من عدمها، ولكن الأمور لا تطرد كلها على هذا النسق، فربما وقفنا على تراكيب أخرى تختلف فيها قواعدها وتتساوى فيها معانيها، مثال ذلك العطف على الشرط وجوابه بالواو والفاء[31].

1 - إن تسُد وتَعْدلْ (أوْ تعْدل) تَنَلْ رضا الله وغضب الناس، فالجزم للفعل(تعدل) عطفًا على فعل الشرط (تسُدْ) وأما نصبه فبأن مضمرة وجوبًا بعد الواو باعتبارها واو معية، وقد يكون هذا العطف بالفاء كقول زهير بن أبي سُلمى:

2 - ومن يكُ ذا فضل فيبخلْ بفضله على قومه يُستغْن عنه ويُذم

حيث يمكننا أن نجزم الفعل (يبخل) عطفا على فعل الشرط (يكن) أو نضعه عنه اجنبيًا وننصبه بفاء السببيّة حتى وإن كان الوزن العروضي لا يسمح لنا بذلك، لكن القاعدة تسمح به .

وفي هذا الصدد قال سيبويه: «وسألت الخليل عن قوله: إن تأتني فتحدثني أحدّثْك، وإن تأتني وتحدّثني أحدّثْك، فقال: هذا يجوز، والجزم الوجه، ووجْه نصبه على انه حمل الآخر على الاسم، كأنه أراد إن يكن إتيان فحديث أحدّثْك، فلما قبح أن يردّ الفعل على الاسم نوى أنْ لأن الفعل معها اسم» [32] ليردف سيبويه سؤاله الخليل بسؤال آخر عن قول زهير:

3 -ومن لا يقدّم رجله مطمئنّة فيُثبتها في مستوى الأرض يزْلق

فأجابه: «النصب في هذا جيد، لأنه أراد هنا من المعنى ما أراد في قوله: لا تأتينا إلاّ لم تحدّثْنا، فكأنه قال: من لا يقدّم إلا لم يُثبتْ زَلق، ولا يكون أبدًا، إذا قلت: إن تأتني فأحدّثُك ، الفعل الآخر إلا رفعًا وإنما منعه أن يكون مثْل ما انتصبَ بين المجزومين انّ هذا

31 – انظر في رحاب اللغة العربية ، ص:192 وما بعدها، عبد الجليل مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ،ط:2004/1.

32 – الكتاب:88/3 سيبويه، الهيئة المصرية للكتاب ،ط:1973 تحقيق: عبد السلام محمد هارون.

منقطع من الأول، ألا ترى انك إذا قلت: إنْ يكن إتيانٌ فحديثٌ أحدّثْك، فالحديث متصل بالأول شريك له: وإذا قلت: إن يكن إتيان فحديث ثم سَكتَّ وجعلته جوابًا لم يشَرك الأول، وكان مرتفعًا بالابتداء، وتقول: إن تأتني آتك فأحدثّك، هذا الوجه، وإن شئت ابتدأت، وكذلك الواو وثمّ ، وإن شئت نصبت بالواو والفاء كما نصبت ما كان بين المجزومين، واعلم أن ثم لا ينصب بها كما ينصب بالواو والفاء، ولم يجعلوها ممّا يُضمر بعده أنْ، وليس يدخلها من المعاني ما يدخل الفاء، وليس معناها معنى الواو، ولكنها تُشْرِك ويُبتدأ بها» (33) .

وهكذا يستمر سيبويه في تحليل التراكيب تحليلا بنيويًا تحت ما أسماه «ما يرتفع بين الجزمين وينجزم بينهما» حاملا كل ذلك على ما تحتمل عناصرها من معاني شتّى، مردفًا أن العنصر «ثم» إذا أدخلناه على الفعل الذي بين المجزومين لم يكن إلا جزمًا ، معلّلا ذلك بمنطق لساني واضح، وهو أن «ثم» ليس مما ينصب به أصلا مثل الواو التي تشترك معها في العطف وتستقل عنها في وظيفة النصب، ومثلُ الواوِ الفاءُ.

أما إذا انقطع أو انقضى الكلام ثم جئنا بـ «ثم» فنحن أمام اختيارين، إن شئنا جزمنا عطفًا كما في قوله تعالى: «وإنْ تتوَلَوا يستبْدل قومًا غيركم ثم لا يكونوا أمْثالكُم» وإن شئنا رفعنا مراعاة لانقضاء كلام سابق ودخولنا في كلامنا لا حق لقوله عزّ وجل «وإن يقاتلوكُمْ يُولّوكم الأدبار ، ثم لا ينصرون» .

ولقد سبق لنا أن أومأنا إلى أحد أقوال أبي عمرو بن العلاء العالم الورع التقي الذي كان يقول فيه لولا انه يقرأ إلا بما قرئ لقرأ بغير ما قرئ ذاكرًا حروفًا، وذلك لكون الرجل يملك رصيدًا لغويًا جاهليًا يؤهله إلى قراءة بمستويات قواعدية مختلفة عن قراءته المفترض فيها أنها متواترة عمن سبقه.

الحكاية كلها تكمن في حمل العربية حملا معنويًا طاقويًا وركوب معانيها ركوبًا يمكن حصر مجالها في أربعة مستويات:

33 ـ السابق ،ص:89.

1 ـ المستوى الأقرب

2 ـ المستوى الأوسط

3 ـ المستوى الأقصى

4 ـ مستوى الخرق.

وما من تركيب لغوي في العربية إلا ويتأرجح بين هذه المستويات الأربعة باطرادها وشذوذها، فسيبويه حين يورد قوله تعالى : ﴿**وإنْ تُخفوها وتُؤتُوها الفقراءَ فهو خير لكم ونكفّرُ عنكم من سيئاتكم**﴾ برفع الفعل «نكفّر» يعلّق قائلا : «والرفع ههنا وجه الكلام، وهو الجيد، لأن الكلام الذي بعد الفاء جرى مجراه في غير الجزاء، فجرى الفعل هنا كما يجري في غير الجزاء» [34] ، إذا بدا لنا أن نقول قولا صادقا بأنه آن الأوان للعربية بأن تجتزئ بكتاب سيبويه وتحاليله وإحراق ما دونه، فإن قراء قرؤوا الآية السابقة قراءات تبعا لما حضره أو رجّحه أو استقر في ذهنه من مستوى أقرب أو أوسط أو أبعد [35]:

1 ـ ابن كثير قرأ بالرفع، ومثله أبو عمر وأبو بكر عن عاصم.

2 ـ نافع وحمزة والكسائي قرأوا بالجزم «نكفّرْ»

3 ـ قرأ ابن عامر وحفص عن عاصم: «ويُكفّر» بالرفع وبالياء.

وحين بلغ سيبويه أن بعض القراء قرأ : ﴿**منْ يُضْلِلِ اللهُ فلا هاديَ له ويذَرُهمْ في طغيانهم يَعْمهُونَ**﴾ «بجزم» «يذرهم» حلّل هذه القراءة تحليلاً بنيويًا تحتيًا قائلاً :«وذلك لأنه حَمَل الفعل على موضع الكلام، لأنّ هذا الكلام في موضع يكون جوابًا ، لأن أصل الجزاء الفعل، وفيه تعمل حروف الجزاء ولكنهم قد يضعون في موضع الجزاء غيره»[36].

والأمر لا يتعلق بالجزم دون عناصر نحوية أخرى، وما أكثرها، إذ يورد الرجل أحد الأبيات التي أتعبت النحاة واللغويين خارج كل تحليل بنيوي سيبويّ:

34ـ نفسه ، ص:90.

35ـ انظر البحر المحيط لأبي حيان الغرناطي:325/2 ،ط:1328هـ مطبعة السعادة ، مصر.

36- الكتاب:90/3-91

معاويَ، إنّا بشر فأسْجحْ فلسْنا بالجبال ولا الحديدا

ليشعرنا بالخرق القواعدي للمألوف بين الصفة والموصوف، بل لا يجرؤ أحدنا اليوم أن يحاكي هذا الشاعر على الرغم من أنه حجة لنا وعلينا في العربية، حتى يقول مثلا: «لسنا بالحصانِ ولا الحمار» غير أن سيبويه عدّ هذا التركيب عاديًا على أن صاحبه حمَل المعطوفَ (الحديد) على موضع الكلام، وموضعه موضع نصْب (خبر ليس مجرور ولفظًا منصوب محلاّ)، ولا فرق بين نصب الحديد هنا وجزم حمزة بن حبيب الزيات والكسائي للفعل «يَذَرهم» في الآية الممثل بها سابقا، لأن القارئين جزما الفعل (يذرْهم) على موضع الكلام، وموضع الكلام الجزم.

وغير قليل من المتكلمين لا يترددون في حمل العربية محملا بعيدًا لا يتناسب مع مستواها الرابع، كقول المتنبي:

إذا الجود لم يُرزق خلاصًا من الأذى فلا الحمد مكسوبا، ولا المال باقيا

على أساس انه أعمل «لا» النافية بتعريف معموليها خلافا للنظام النحوي العربي الذي عليه الجمهور بأنها لا توظّف إلا في النكرات خلافًا لابن جني وابن الشجري اللذين يريان أنها تعمل في النكرات والمعارف مستشهدين بقول النابغة الجعدي:

وحلَّتْ سواد القلب، لا أنا باغيًا سواها، ولا عن حبها متراخيا

والناقدون المتنبي وقبله الجعدي يريدون منهما أن يتّبعا قول الآخر:

تعزّ فلا شيءٌ على الأرض باقيا ولاوزْر مما قضى الله واقيا

وكأن المتنبي أراد أن يتحدى ما عليه الجمهور ليشذ عنهم غير عابئ بهذه القاعدة النحوية التي لم يظفر الزجّاج بشاهد لخبرها، ونحن ننتصر للمتنبي إذا كان موضع الكلام يقبلها حملا على أي معنى، ولكننا لا نجد لهذا الموضع مسوّغا معنويًا يحتضنها، أي هو خارج القواعد أو الممكن، وداخل اللاممكن.

والمتنبي الذي عرف بجرأته على العربية ليس من قبيل الجهل، بل من قبيل العلم

بقواعد سقطت من التقعيد سقوطًا قصديًا من المقعدّين لأصول اللسانيات العربية وأرضيتها المبكرة، من ذلك نظمه الذي لا يتناسب إلا مع المستوى الرابع:

أنّى يكــون أبـا البريّة آدمٌ وأبوك والثقلان أنت محمد؟

وقد يعترض معترض بأن الشاعر ليس من فترة الاحتجاج، ولا يؤخذ نظمه بعين الحسبان، لكن ألم يقل حسان :

ولو أنّ مجدًا أخلد الدهر واحدًا أبـقى مجْدُه الدهــر مطعما ؟

غير أن المعـياريين يـرفضـون هـذا الـنـظـام عـلـى أن الـنـاظـم قـدّم الضـمير المتصـل في «مجده» مع أنه عائد متأخر لفظًا، وهو «مطمعا» أي لا يجوز تقديم المكني (الضمير العائد) على الظاهر، بل ألم يقل غير حسان والمتنبي:

لما رأي طالبوه مصعبًا ذُعرُوا وكاد لو ساعد المقدور ينتصر ؟

وما يسمىّ عادة بضرورات ونحو هذا «لم يكن إلا لغة عربية يتعاطاها العرب في نثرهم وشعرهم وأمثالهم وحكمهم، ولكن المتأخرين في عصر التدوين وهم يهيئون قواعد اللغة العربية لم يجدوا مدونات أدبية غير الشعر المقيد بالتفعيلة تقييدًا مطلقًا، مما جعل هؤلاء يتأولون على العربية ويرفضون أكثر من نصف قواعدها وأنظمتها التي كانت تعدّ في غاية الدقة والشفافية، مما جعل قواعد اللغة العربية تظل قواعد جافة لا تنمو ولا تتحرك ولا تتطور، فقفل باب الاجتهاد فيها، وكل من ثار في وجه المعياريين القدماء منهم والمحدثين عدّوه زنديقا نحويًا ضالا» (37).

وحمل لغة على أكثر من بعد ومستوى يطرح تساؤلات، تعدّ أي إجابة عنها من قبيل المجازفة الميتافيزيقية المفتوحة، لكن هذا لا يمنعنا أن نتساءل: هل ما يُسمّى بالنظام اللغوي هو اللغة في حد ذاته؟ لا يمكننا أن نظفر بجواب إلا إذا أخضعنا هذا التساؤل لخصائص كل لغة من وجهة طاقتها اللسانية الذاتية ثم المقارنة، نحن لا ننكر أن ثمت أنظمة تتعلق بذاتية اللغة

37 ـ في رحاب اللغة العربية ، ص:71.

نفسها قبل أن تتعلق بعالم الأشياء المحيط بها، بمعنى أن لغتنا الطبيعية أكثر من قواعدها، ولا تعرَّفُ خارج نفسها لا حُدودِها، فنظام العربية يشترط شروطا في أسلوب التعجب، لكن هذا النظام نفسه قد يقبل منا أن نقول :

«ما ألصَّه !» ولا يقبل منا أن نقول : «ما أحمره، وما أجلفه» .

وحمل العربية حملاً معنويا في عملية التبليغ وفق المستوى الثالث منها ظاهرة لغوية مؤكدة فيها، أيا كانت عناصرها النحوية أو اللكسيكية ففي قوله تعالى: ﴿ **قل لا أسألكم عليه اجرا إلا المودة في القربى** ﴾، فإنّ «لا» هنا لا تفيد الاستثناء، وإلا كانت «المودة» مسؤولة أجْرا، وليس كذلك، بل المعنى: لكن افعلوا المودة للقربى فيكم، وقد تأتي «إلا» بمعنى الواو كما في قوله تعالى ﴿ **لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا** ﴾ أي ﴿ **والذين ظلموا أيضًا لا يكون لهم عليكم حجة** ﴾ [38] ومنه قول الشاعر:

وكلّ أخٍ مفارقه أخُوه لعمْرُ أبيك إلا الفرقدان

الذي اتخذه الكوفيون حجة لمذهبهم القائل: «تكون (إلا) حرف عطف في الاستثناء خاصّة، وحُملت (إلا) على غير في الصفة إذا كانت تابعة لجمع مُنكّر غير محصور نحو» «لو كان فيهما آلهة إلا الله» أي غير الله» [39].

وكم كان سيبويه رائعا، وهو يترصد التواصلات العربية الطبيعية، حين فطن إلى مّا في كلام العرب من شيوع يتبلور في حملهم تبليغاتهم على المعنى، ألم يقل في صدر كتابه [40].

1 ـ اللفظان يختلفان لا ختلاف المعنيين ؟

2 ـ اللفظان يختلفان، والمعنى واحد؟

3 ـ اللفظان يتفقان والمعنى مختلف ؟

38 ـ المصباح المنير،ص:19, الفيبومي ، المكتبة العلمية بيروت.

39 – السابق ، ص:19.

40 ـ الكتاب :24/1.

كم جملة عربية في أساليب العرب لا يفهم معناها ما لم تحمل حملاً على تصور معنوي بعيد، لماذا أنث جرير الفعل «تواضعت» في بيته.

لما أتى خبر الزبير تواضعتْ سُورُ المدينة والجبال الخُشّعُ؟

بكل بساطة أن الشاعر حمل كلمة «سُور» المذكرة حملا على مفردها المؤنث (سورة) غير عابئ بما دخل على مفردها المؤنث من تحريفات مورفيمية، ومن شواهد الكتاب [41] .

أستغفر الله ذنبا لستُ مُحصيهُ ربَّ العباد إليه الوجْه والعملُ

حيث فسَّر صاحبه هذا الفعل (أستغفر) بأنه يوصل بحرف الإضافة مثل: اخترت فلانًا من الرجال، وعرفته بهذه العلامة، وأوضحته بها، وأستغفر الله من ذلك،... ثم حذف حرف الجر فعمل الفعل ، كقول آخرهم [42].

أمرتك الخير فأفعل ما أمرت به فقد تركتك ذا مال وذا شنبِ

قال أبو عبيدة: «قال بعضهم: نصب ذنبًا بفقدان الخافض، وهذا خطأ، لأنه لو كان فقدان الخافض ينصب، كان ينصب في كل حال، وليس نجد ذلك، كقولك: حسبُك بزيدٍ، ثم تقول : حسْبُك زيْدٌ، وإنما ينتصب لأنه لما ذهب حرف الجر تعدّى الفعل فعمل فيه» [43] حتى وإن ذكر سيبويه أن هذا النوع من التواصلات العربية قليل في كلامهم، لأنه لا يتكلم بها إلا بعضهم [44].

ثم يأتي الأنباري (557هـ) ليؤكد مدعاة أي عبيدة منتقدًا بشدة في مواضع أخرى مماثلة الكوفيين الذين يرون، فيما يرون، أن خبر «ما» في قوله تعالى: «ما هذا بشرًا» نصب بحذف حرف الجر، «وهذا فاسد، لأن حذف الجر لايوجب النصب، لأنه لو كان حرف الجر يوجب

41 ـ السابق :37

42 – نفسه ، ص:37.

43– الإيضاح في علل النحو ، ص:139 الزجاجي ، تحقيق مازن المبارك

44ـ انظر الكتاب:38/1

النصب لكان ينبغي ان يكون ذلك في كل موضع، ولا خلاف أن كثيرًا من الأسماء يحذف منها حرف الجر، ولا ينتصب بحذفه، كقوله تعالى:﴿**وكفى بالله وليًا ، وكفى بالله نصيرًا**﴾ ولو حذف حرف الجر لكان : ﴿**وكفى الله وليًا، وكفى الله نصيرًا**﴾ بالرفع، كقول الشاعر:

عُميرة ودِّع ، إنْ تجهَّزْتَ غاديا كفى الشيبُ والإسلام للمرء ناهيا [45].

وإذا ما ضربنا هنا صفحًا عن الحركات الإعرابية التي أصبح الحديث عنها سخيفا ومبتذلاً، وتعمقنا في الأسباب التي حدت بصاحب قرآن النحو أن يحمل العربية على المعنى التحتي بدل البنية السطحية، فإننا نجد أسبابًا لسانية ناطقة أكثر من أن تحصر في بحث مثل هذا من ذلك:

1 ـ الواحد يراد به الجمع:

ذكر ابن فارس أن من سُنن العرب أن تذكر المفرد وتريد به الجمع مستشهدا بقوله تعالى:[46]

ـ «هؤلاء ضيفي»

ـ «ثم يخرجكم طفلا»

ـ «لا نفرّق بين أحد منهم»، والتفريق لا يكون إلا بين اثنين وقال العباس بن مرادس:

فقلنا: أسلمـوا إنّا أخوكـمْ فقد سلمت من الإحن الصدورُ

وقال شاعر آخر:

كلوا في بعض بطنكم تعفّوا فـإن زمانكم زمـنٌ خميـصُ

وهو يريد: كلوا في بطونكم فوضع البطن الواحد في موضع البطون الكثيرة، ولربما اكتفوا

45ـ أسرار العربية ،ص:143-144 الأنباري ، تحقيق محمد مهجة البيطار، المجمع العلمي العربي ، دمشق

46- عُدْ إلى الصاحبي في فقه اللغة ، ص:211 وما بعدها لابن فارس تحقيق،د. مصطفى الشويمي مؤسسة بدران : بيروت ، ط:1963.

في خطابهم بلفظ الواحد إذا دل معناه صراحة على الجمع، إذ تقول العرب: ثلثمائة، ولا تقول: ثلاث مئين، وهو القياس ولكن لفظ المائة يدل في ذاته على الجمع، وهذا أدلّ على الجمع مما أوردنا (طفل / أطفال، بطن / بطون، أخ / إخوان...)

2 ـ الجمع يراد به واحد واثنان

الشائع لدى النحاة أن الجمع ما دلّ على ثلاثة فأكثر، غير أن ثمت أنساقا في العربية وردت مخالفة لهذه القاعدة وهذا ما يقصده ابن فارس بقوله: «ومن سنن العرب الإتيان بلفظ الجميع، والمراد واحد واثنان» (47) مستشهدًا بتراكيب قرآنية:

-«وليشْهدْ عذابهما طائفة» حيث يراد به (الجمع) واحد واثنان وما فوق.

- «إنْ يُعفَ عن طائفة منكم تُعذّبْ طائفة» ، فالطائفة جمع يراد به رجل واحد من القوم، وقرأ السبعة الآية هكذا صوتيا ونحويًا وصرفيًا، إلا عاصماً تفرد بقراءة هكذا:«إن نعْفُ عن طائفةٍ منكم نعذّب طائفة» (48) وهي قراءة أوضح مستوى وأقرب إلى المنطق اللساني المألوف

- «إن الذين ينادونك من وراء الحجرات» ، وهو جمع يراد به ما دونه.

- «بم يرجع المرسلون؟» مع أن المرسل شخص واحد بدليل قوله تعالى: «ارجع إليهم»

ومطلع معلقة عبيد بن الأبرص يصبّ في هذا الاتجاه:

أقفر من أهله ملحـــوب فالقطبيّات فالذنـــــوب

مع ان القطبيات جمع للقطبية، وهو ماء معروف عند العرب، وإيقاع لفظ الجماعة على معنى الواحد كثير ومطرد في كلام العرب، بل منهم من يصطنع "مَنْ" للتثنية كقول الفرزدق الشهير:

تعال فإن عاهدتني لا تخونني نكنْ مثل منْ ياذئب يصطحبان

ولا حاجة للتفسير بأن الشاعر أراد «نكن مثل اللذين يصطحبان ياذئب» .

47 ـ الصاحبي في فقه اللغة ، ص:212.

48 ـ انظر المصباح المنير ،ص:111 وقارن بالصحاح:1/103

3 ـ الجمع المراد به مادونه

- «وإن كنتم جُنبًا» فقال : جُنُبًا، وهم جماعة حتى وإن كان اللغويون يرون أن الجُنُب الذي هو من الجنابة يطلق على الذكر والأنثى والمفرد والتثنية والجمع، وربما طابق على قلّة، فيقال: أجناب وجُنُبُون، ونساء جُنُبات [49].

- «والملائكة بعد ذلك ظهير» أي (ظهير) واحد يراد به الجميع، غير ان اللغويين يرون ان الكلمة لم تجمع هنا تطابقا مع مبتدئها لأنّ «فعيل» و «فعُول» قد يستوي فيهما المذكر والمؤنث والجمع، مستشهدين بقوله تعالى الآخر:

- «إنّا رسولُ ربّ العالمين» وبقول الشاعر:

يا عاذلتي لا تُردْن ملامتي إنّ العواذل لسْنَ لي بأمير

وهو يريد الأمراء، ولكنه أحجم عن ذكر ذلك حملاً على المعنى.

4 ـ وصف المفرد او المثنى بصفة الجمع:

تقول العرب : بُرمة (قدْر من حجر) أعْشارٌ، وثوب أهدام (جمع هدْم) وهو اللباس الخلق المرقع)، وحبل أحذاق (أخلاق) مُسْتشهدًا لهم بقول راجزهم: [50] .

جاء الشتاء وقميصي أخلاق شراذمُ يضحك منه التوّاق

وجاء في القرآن: ﴿ما كانَ للمشركين أنْ يعْمُرُوا مساجد الله﴾ ذاهبين إلى أن المقصود بالمساجد المسجد الحرام، وأما الجمع الذي يعبَّر به، ويراد به الاثنان فقولهم:«امرأة ذات أوراك ومآكمَ»، مع أن الإنسان ليس له إلا وَرِكانِ ومأكمتان (عجيزتان).

5 ـ مخاطبة المفرد بلفظ الجمع

قال ابن فارس: «من سنن العرب مخاطبة الواحد بلفظ الجميع، فيقال للرجل

---

49 - راجع الصحاح : 731/2 اسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق : احمد عبد الغفور عطار ،ط:1984 دار العلم للملايين، بيروت .

50 ـ الصاحبي في فقه اللغة،ص:213.

العظيم: انظروا في أمري، وكان بعض أصحابنا يقول: إنما يقال هذا لأن الرجل العظيم يقول: نحن فعَلْنا، فعلى هذا الابتداء خوطبوا في الجواب» [51] موردًا قوله تعالى: ﴿ قال: ربِّ ارْجعونِ ﴾ .

6 ـ الإخبار بلفظ الاثنين عن الجماعة والجماعة والواحد:

ذكر ابن فارس أن من سنن العرب أن تذكر جماعة وجماعة او جماعة وواحدًا ثم تخبر عنهما بلفظ الاثنين محتجًا بقول الشاعر [52]:

إنّ المنيّة والحتوف كلاهما   يوفي المخارم يرْقُبان سوادي

وبقول الاخر:

ألم يَحْزُنْك أنّ حبال قيْسٍ   وتغلبَ قد تباينتا انقطاعــا

وفي التنزيل: «إنّ السموات والأرض كانتا رتْقا ففتقْناهما» فالسموات جمع، والأرض مفرد، وتمّ الإخبار عنهما بالمثنّى.

7 ـ عادة العرب في إسناد الخطاب إلى اثنين والمراد واحد

هذا الباب أشهر من ان يومأ إليه، وتعامل معه قراء النصوص القرآنية والشعرية على انه أمر عادي، من ذلك ما ذكره أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري من أن العرب تخاطب الواحد بخطاب الاثنين فيقولون للرجل: قوما، واركبا،كقوله تعالى: ﴿ ألْقيا في جهنّم كلّ كفّار عنيد ﴾ فثنى وهو يخاطب واحدًا، لأن الكلام موجّه إلى مالك خازن جهنم [53] وقال سُوَيْدُ بن كراع .

فإن تزْجُرُ اني يا ابن عفّان انزجرْ   وان تدعاني أحْمِ عرضًا مُمنّعا

---

51 – نفسه ،ص: 213.

52 ـ نفسه ،ص: 214 والمخارم، مفردها مخرم ، وهي أنف الجبل او أفواه الفجاج

53 ـ راجع القصائد السبع الطوال الجاهليات،ث: 16 محمد بن القاسم الأنباري، تحقيق محمد عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر.

وقال امرؤ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

خليلي مرّا بي على أم جنـدب لنقضي حاجات الفؤاد المعـذّب

8 - تحويل الخطاب من الشاهد إلى الغائب

جاء في الآثار الأدبية والتراكيب القرآنية أن العرب قد تخاطب الشاهد ثم تحوّل خطابها إلى الغائب منه قول النابغة الشهير.

يادارميّة بالعليـاء فالسّنـد أقوَتْ وطال عليها سالف الأبد

فخاطب الشاعر في الشطر الأول دارمية، ثم اعرض عما يشهده أو يتذكره من رسوم ودمن لها ليحوّل الخطاب إلى الغائب في الشطر الثاني، بدليل قوله: «أقْوَتْ» ومنه قوله تعالى:

- ﴿ حتى إذا كُنتمْ في الفلك، وجَرينَ بهم ﴾ .
- ﴿ وما أوتيتمْ من زكاةٍ تريدونَ به وجه الله، فأولئك هم المُضعفُونَ ﴾ .
- ﴿ ولكنّ الله حبّبَ إليكم الإيمانَ، فأولئك هم الراشدونَ ﴾

9 - أو العكس، تخاطب الغائب ثم تحوّله إلى الشاهد

مما تضعه العرب من تحولات خطابية من الغائب إلى الشاهد قول الهذلي:

يا ويح نفسي كان جدّة خالدٍ وبياضُ وجهك للتراب الأعفـر

وهذا ما يسميه البلاغيون الالتفات، كقول جرير

أتنسى إذ تـودّعنا سُليْمـى بفرع بَشامة؟ سُقي الغمـامُ

متى كان الخيام بذي طلوح ـ سُقيت الغيثَ ـ أيتها الخيام

وقال النابغة الجعدي:

ألا زعمت بنو سعـدٍ بأنـي ـ ألا كذبوا ـ كبيرُ السنِّ فانِ

ودون حاجة إلى إيراد المزيد من التراكيب التي تصب في الاتجاه نفسه خشية أن يخرج البحث عن جادته وهدفه، فإن الالتفات باب عزيز، وهو أن ينتقل المتكلم من الخطاب إلى الإخبار، وعن هذا الأخير إلى الخطاب، ومجال هذا الفن البلاغة، لكن هل البلاغة إلا بنية لغوية ومطية فنية الإدراك ما يحمل على المعنى؟.

10 ـ 1: تأنيث المذكر وتذكير المؤنث

تأنيث المذكر وتذكير المؤنث حقل لغوي شائع بين العرب في تواصلاتهم، ولذلك لم يتردد عالم لغوي كابن جني من القول: «وتذكير المؤنث واسع جدًا، لأنه ردّ فرع إلى أصل، لكن تأنيث المذكر أذهب في التناكر والإغراب» (54).

هذا الأسلوب كان منتشراً بين كل الفصحاء، وورد في الذكر الحكيم، وفي لغة الاحتجاج من شعر ونثر وأمثال وحكم، وأما مايدخل في باب القواعد فذلك أفسح وأبعد من هذا .

روى الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء أنه سمع رجلا من أهل اليمن يقول: فلان لغُوب، جاءته كتابي فاحتقرها، فقال أبو عمر و:

- أتقول: جاءته كتابي(يعني إلحاق الفعل (جاء) بتاء التأنيث الساكنة)؟

- قال اليمني: نعم، أليس بصحيفة ؟ (55).

وذكر سيبويه وغيره أن العرب تقول: «ما جاءتْ حاجتَكَ، وذهبت بعض أصابعه» فأنّثوا الفعل «جاء» لأن «ما» هي الحاجة في المعنى، وأنثوا الفعل «ذهب» لأن بعض الأصابع إصبع، وانشدوا على نحو هذا:

أتهجـر بيتًا بالحجـاز تلفّعـت به الخَوْفُ والأعداء من كل جانب؟

ذهابا بـ «الخَوف» إلى المخافة، ولا حرج في هذا ، ما دامت الكلمتان مصدرين لفعل واحد، وجاء أيضًا في رائية عمر بن أبي ربيعة الشهيرة:

فكان مجني دون من كنت أتّقى ثلاث شخوص: كاعبان ومُعْصِرُ

54 ـ الخصائص:2/415 ابن جني، تحقيق محمد النجار، دار الهدى ، بيروت

55 – المصدر السابق ، ص:416

مؤنثًا الشخص ذاهبًا به إلى المرأة لا النّفس، لأن النفس تؤنث إن أريد بها الروح، كقوله تعالى: ﴿ خلقكم من نفسٍ واحدة ﴾ وتُذكَّر إن أريد الشخصُ، حتى وإن ذكر سيبويه أن تذكيرها أكثر [56].

ويعدّ ابن جني هذا الباب(تأنيث المذكر) ضرورة قبيحة لأنه خروج عن أصل إلى فرع، ولذلك نجده لا يحبذ تأنيث الصَّوت في قول الشاعر:

يا أيّها الراكب المُزجي مطيَّتهُ سائل بني أسدٍ ما هذه الصَّوْتُ؟

حين أراد به معنى الاستغاثة [57]، ويعُدُّ هذه التراكيبَ ونحوها من قبيل الشذوذ، لكنه لا يلبث أن يستأنس إلى حد ما ببيت لجرير، استشهد به سيبويه:

إذا بعضُ السنين تعرَّقتنـــا كفى الأيتام فقد أبي اليتيـــم

محلّلا: «وهذا أسهل من تأنيث الصوت قليلا، لأن بعض السنين سنة، وهي مؤنثة، وهي من لفظ السنين، وليس الصوت بعض الاستغاثة ولا من لفظها» [58] بمعنى أن ابن جني متردد بين قبول ورفض لمثل هذه التراكيب، ولكنه وجد نفسه محرجا لورود نظير لها في القرآن كقوله تعالى: ﴿ تلتقطه بعض السيارة ﴾ مؤوّلا أن بعضها سيّارة وهي القافلة، وشبيه بهذا قول الآخر:

غفرنا، وكانت من سجيتنا الغَفْرُ

وما أشار إليه ابن جني عرضًا فصّله قبله سيبويه بأكثر من قرنين تفصيلاً لسانيًا تطبيقيًا محالا على تواصلات عربية قحة دون أن يذم هذا الباب أو يشك في فصاحته وسلامته، فالقوم كانوا حتى عهد سيبويه يجرون تواصلاتهم وتبليغاتهم على مواضع الكلم في كل المستويات، ولاسيما المستويات: السانتكسي والسيمانتكي وحتى الفونولوجي.

سيبويه يورد تراكيب عدة من هذا القبيل:

56 ـ انظر الكتاب: 563/3.

57 ـ انظر سر صناعة الإعراب، 13/1.

58 ـ نفسه، ص: 14.

- ما جاءتْ حاجَتك

- من كانتْ أمَّك

- ما جاءت حاجتُك، من كانت أمُّك (على الرفع أيضًا مع البقاء على التأنيث)

لكنهم لم يقولوا: ما جاءَ حاجتك ، «وسمعنا من العرب من يقول ممن يوثق به: اجتمعت أهل اليمامة، لأنه يقول في كلامه اجتمعت اليمامة، يعني أهل اليمامة فأنث الفعل في اللفظ إذ جعله في اللفظ لليمامة، فترك اللفظ يكون على ما يكون عليه في سعة الكلام، ومثله في هذا: يا طلحةُ اقبل، لأن أكثر ما يدعو طلحة بالترخيم، فترك الحاء على حالها، وياتيْمَ تيمَ عديّ أقبل»[59].

10 -2 : تذكير المؤنث

ودون أن ندخل في متاهات ما وراء لغوية بشأن الإشارة إلى الأصل من الفرع: المذكر أسبق أم المؤنث، فإن تذكير ما هو مؤنث أسوة بتأنيث ما هو مذكر حقل سانتكسي شائع في كلام العرب الفصيح شعره ونثره، بل منه ما قرئ به في الذكر الحكيم، فمما ذكره سيبويه في هذا الباب أن كلمة «الشّاء» أصلها التأنيث، حتى وإن وقعت على المذكر، وبالمثل نقول: هذه غنَمٌ ذكُورٌ، لكنها قد تقع على المذكر، بل قال الخليل: «هذا شاة بمنزلة قوله تعالى: ﴿ **هذا رحمة من ربّي** ﴾ [60] ومما ورد مثله في القرآن:

- ﴿ **فلمّا رأى الشمس بازغة، قال: هذا ربّي** ﴾

أي هذا الشخص او هذا المرئيّ

- «فمن جاءه موعظة من ربه»

لأن الموعظة والوعظ واحد.

- «إن رحمة الله قريب من المحسنين

59 ـ الكتاب: 1/50-53

60 ـ الكتاب: 3/562

ذكر ان المراد بالرحمة هنا المطر، والذي أراه ان المقصود بالرحمة في هذه الآية الثواب.

وقال الحطيئة مشيرًا إلى نفسه وزوجه وابنته مليكة وإبله الثلاث:

ثلاثة أنفسٍ وثــلاث ذودٍ لقد جار الزمان على عيالي

حيث ذهب بالنفس إلى معنى الإنسان فذكرها، في حين أبقى على تأنيث الذّود التي تعني الإبل ما بين الثلاث إلى العشر، وقال غيره:

فلا مُزنةٌ ودَقَتْ ودْقَها ولا أرضَ أبقل إبْقالُهــا

مذكرًا الأرض لما ذهب إلى معنى الموضع أو المكان، وقد يكون ذهب بها إلى البساط من النبات.

إن حمل كلام العرب على معناه الموضوع له والمتواضع عليه أمر لا بد من مراعاته والالتزام به من الجماعة المكتسبة التي تلقته طبيعيا أو تعلميًا من الجماعة اللغوية الأولى التي عملت على توريثه وإشاعته عملا واستعمالا، وهذا الشيوع، وإن لم يكن كثيرًا وشاملا بين العرب، فإن ما جاء مستعملاً في شتى مستوياته وأجناسه يدل مع ذلك على وجوده في تواصلاتهم وفق أنساق ثقافية وأعراف اجتماعية لسانية.

ووفق ما أشير إليه أعلاه، فلا يسعنا إلا أن ننوّه اعترافًا بأولئك اللسانيين العرب القدماء الأساطين الذين سبقت أفكارهم اللغوية الأصيلة الرائدة عصرهم بقرون ، فهم مثلا يقسمون التواصلات أو يحصرونها في عشرة معانٍ أو مستويات :

1 ـ الخبر، ويقصد به الإعلام لا غير، كأن يوجّه المرسل تبليغًا، ليس ضرورة أن يتلقاه مرسل إليه بعينه، بل ليس المتكلم أو المبلّغ مجبرًا سلفًا بذكر أو استحضار كل العوامل التي يقوم عليها الاتصال، ولكنه لا بد من استعمال إشارات صوتية حتى يتحقق له الإعلام، غير ان المرسل مجبر هنا على إفادة مخاطبه بزمن الحدث الإعلامي:

أحدث في ماضٍ من زمان أو مستقبل أو دائم؟ وإعلامه ذو ثلاثة احتمالات:

أ ـ احتمال واجب: الحرب مشتعلة، خسرنا معركة، ولم نخسر الحرب

ب ـ احتمال جائز: صافح الرئيس مواطنًا، انتصر الفريق الوطني بهدفين لهدف.

ج ـ احتمال ممتنع: كجملة سيبويه: «شربت ماء البحر»

والمعاني التي: يحتملها لفظ الخبر كثيرة كالتعجب: ما أجمل الربيع ، والتمني: ودِدْت لو أن بني وطني ذوُو هويَّة واحدة، والإنكار: ليس له عليّ يد بيضاء، والنفي: لا بأس عليك، والأمر كقوله تعالى: ﴿ **والمطلقاتُ يتربّصن بأنفسهنّ ثلاثة قروء** ﴾، والنهي: ﴿ **لا يمسّه إلا المطهّرونْ** ﴾ والتعظيم: «سبحان الله»، والدعاء «عفا الله عنه»، والوعد: سَنُريهم آياتنا في الآفاق ، والوعيد :«وسيعلم الذين ظلموا» والتبكيت: «ذُقْ، إنك أنت العزيز الحكيم» وفي معنى التبكيت، قال شاعر يهجو جريرًا:

أبْلغ جريرًا وأبْلغ من يُبلّغــه أنّى الأغرّ وأني زهرة اليمــن

إلا أن المهجوّ (جريرًا) أجابه مبكّتا له:

ألم تكن في وسوم قد وُسمت بها من خان موْعظةٌ يازهرة اليمن؟

وقد يكون اللفظ خبرًا، والمعنى دعاء وطلب واسترحام ... الخ ونحن لا نعجب لدلالة الخبر على الإعلام، لأن الخبَرَ ليس مصدرًا للفعل خَبَرْتُ الشيء أخْبُرُهُ خُبْرا وخبْرة بمعنى علمْتُه ، وبالتالي فأنا خبير به، بل الخبرُ اسم ما يُنقل ويتحدَّث به ، ولذلك قيل: « صدّق الخبرَ الخُبْر» ، لأن الخُبر أن تبْلُو الشيء وتختبره ليؤول بك البلاء به إلى علمه حقّ علمه، ولذلك لو سميّنا «الخبير» بـ «العليم» لكان جائزًا، لأن الإنسان لا يحرز صفة الخبير في عمل أو فن أو مهنة إلا بعد العلم به، والإ صار أي خبير بالشيء مصدر العلم لنفسه، وهذا مستحيل لبشر.

2 ـ الاستخبار، ويرادف تقريبا معنى الاستفهام، لأن الاستخبار «كل ما ليس عند المستخْبر» [62] وما تجاب به عمّا استخبرته من غيرك غير مسؤول على فهمك من عدمه، مما يجعلك فضوليا لطرح استفهام عما أشكل عليك من تبليغ، وذُكر أنّ الاستخبار ظاهره موافق لباطنه:

62 ـ نفسه ، ص: 181.

- ما عنك؟ ⟵ قلم

- من رأيت؟ ⟵ عليًا

- كم سنك؟ ⟵ خمسون عامًا.

والاستخبار تتعدد معانيه تخالفا عما هو مألوف في دوّالها الصوتية:

ـ الاستخبار في اللفظ والمعنى تعجب إيجابي كقوله تعالى: ﴿**فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة؟**﴾ أو تعجب سلبي: ﴿**وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة؟**﴾ ب ـ وقد يسمى التعجب تفخيما لأمر عظيم فيه دلالة الوعيد والتهديد، كقوله تعالى: ﴿**ماذا يستعجل المجرمون؟**﴾

ج ـ الاستخبار في اللفظ، والمعنى توبيخ، كقول الشاعر:

أغَرَرْ تني وزعمتَ أنّك لا بنٌ بالصيف تامرُ؟

د ـ الاستخبار في اللفظ، والمعنى تفجّع، كقوله تعالى:

« وَوُضع الكتابُ، فترى المجرمين مُشفقين مما فيه، ويقولون: ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

هـ ـ الاستخبار لفظ، والمعنى تبكيت ، كقوله تعالى: ﴿**وإذ قال الله يا عيسى بنَ مَرْيم ، أأنت قُلت للناس: اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟**﴾... إلى غير ذلك من المعاني المتداولة أسلوبيا وبلاغيًا بين علماء اللسان العربي، مثل التقرير، والتسوية، والإنكار، والعرض، والتحضيض والإفهام(وما تلك بيمينك يا موسى؟) ... الخ.

3 ـ ثم تأتي المعاني الثمانية الباقية المعروضة في كتب اللغة والبلاغة،... وإذا عدنا اليوم إلى أبرز اللسانيين المعاصرين، وهم يستعرضون الوظيفة الأساس للغة الإنسانية لوجدناهم يقرّون بان «الوظيفة الأساس للغة الإنسانية أن يتمكّن كل إنسان من تبليغ نظرائه تجربته الشخصية، ونفهم من «التجربة» كل ما يحس به الإنسان أو يلاحظه، بحيث يكون المثير Stimulus إما داخليا وإما خارجيًا، بحيث إن هذه «التجربة» تأخذ شكل يقين، أو شك، أو

رغبة، أو حاجة، إن التواصل مع الآخرين يمكن أن يتخذ شكل تأكيد أو سؤال أو طلب أو أمر دون أن ينقطع ليكون تواصلا» (63) علمًا بأن التجربة لا تبلّغ من الأنا إلى الآخر بالاعتماد على الصورة الصوتية السمعية وحدها، ولذا فإن ما يسمى بالوحدة الصوتية المتمايزة ليست متمايزة في حد ذاتها، بل بمجموع ما يشاركها من وحدات صوتية وفي الآن ذاته، فنحن نقول في عربيتنا: الختل، الختر، الغدْر،... وهي كلها بمعنى، بل لن يكون لهذه الوحدات الصوتية معنى مطرد وثابت على مستوى أصغر وحدة دالة، فهي قد تشحن في إطار سياق عام تسهم فيه بنية التركيب أو الجملة كلها.

إذا لم تخش عاقبــة الليالي ولم تسْتحْي، فاصنع ما تشاء

إن حمل كلام العرب على معناه هو الغالب الأعم على كتاب سيبويه، بحيث لا تكاد تجد فيه بابًا من أبوابه إلا وتعرض بشكل مباشر أو غير مباشر إلى حمل بنية كلام العرب وتأويلها وتقليبها على ظاهرها تارة، وعلى موضعها أو ما تحتمله من دلالات متداعية ببعضها بعضًا تارة أخرى بما في ذلك التحليلات السانتكسية العجيبة فهو حين يتعرض إلى ذكر سبب رفع «قليلٌ» في بيت امرئ القيس:

فلو أنّ ما أسعى لأدنى معيشة كفاني، ولم أطلب، قليل من المال

يقول: «فإنما رفع لأنه لم يجعل القليل مطلوبًا، وإنما كان المطلوب عنده الملك، وجعل القليل كافيا، ولو لم يُرِدْ ذلك ونصب فسد المعنى» (64) ولو قُلت: مررتُ بعمرو وَزَيْدًا لكان عربيًا، فكيف هذا؟ لأنه فعْل، والمجرور في موضع مفعول منصوب، ومعناه أتيتُ ونحْوُها» (65) مستشهدًا بقول جرير:

جئني بمثل بني بدر لقومهم أو مِثْلَ أسرةِ منظور بن سيّار

ما من شك في أن هذه الظواهر اللغوية التي هيأها الأولون وطمسها المتأخرون ظواهر

63 - la linguistique synchronique p.9 andre martinet. preuves universitaires de France 1974.

64 ـ الكتاب :79/1

65 ـ نفسه ،ص:94.

لغوية عربية تشهد على ما مرت به العربية القديمة من طرائق أكثر شفافية في الاتصال، وتدّل أيضًا على ما كان يطرأ عليها من تحوّل من شكلها الصوتي إلى باطنها المعنوي، غير أن ذلك التحول المختلّ والمتفاوت جغرافيا وتاريخيا واجتماعيا هنا وهناك لم يكن معلومًا ولا معلنا عنه لدى كل الجماعات اللغوية المالكة لناصية هذه اللغة، ومع ذلك، فإن طبقات من المتكلمين بقيت متمسكة بما ألفته وكسبته من مستويات تواصلية، وما كان يصلهم من جهات مسهمة في أي تحوّل لغوي بعد لأي من الزمن لم يكن بمقدوره أن يحوّل ألسنتهم عما عهدته من عادات أضحت جزءًا ومصيرًا من تواصلهم وهويتهم، فضلا عن أن العربي مجبول في لسانه بطبعه.

ومن اللغويين القدماء، خاصة من الكوفيين، من لم يحبّذ حمل سيبويه كلام العرب على المعنى، كقول ثعلب(291هـ) «إن العرب تخرج الإعراب على اللفظ دون المعاني، ولا يفسد الإعراب المعنى، فإذا كان الإعراب يفسد المعنى، فليس من كلام العرب» [66] ذاكرا أن أستاذه الفراء (207هـ) عمل العربية والنحو على كلام العرب، ولأنه قال: «كل مسألة وافق إعرابها معناها، ومعناها إعرابها فهو الصحيح، وإنما لحق سيبويه الغلطُ لأنه عمل كلام العرب على المعاني، وحلّى عن الألفاظ، ولم يوجد في كلام العرب ولا أشعار الفحول إلا ما المعنى فيه مطبق للإعراب، والإعراب مطبق للمعنى» [67]، في حين ان الفراء «حمل العربية على الألفاظ والمعاني فبرع، واستحق التقدمة» [68].

لا أحسب أني أجد في نفسي شعورًا ولا جرأة للرد على عالم مثل ثعلب، ولكن المطلع على مبادئ التمذهب بين المدرستين لا يعوزه أن يشتم جنوحًا وانحيازًا على صاحب «قرآن» النحو، ولكن سيبويه الذي حمل العربية على المعنى لأنه كان يعلم ان هذه اللغة لا تخلو من تواصلات خارج «سجن» القواعد النحوية الجافة، لنُوردْ مثالا، علاوة على الأمثلة السابقة، ونتأملْ طريقة التحليل السيبويّة لبعض الجوانب السانتكسية الواردة فيه:

66 ـ طبقات النحويين واللغويين ،ص:131 الزبيدي تحقيق: محمد أبو الفظل إبراهيم ،ط:1973 دار المعارف مصر

67 ـ نفسه ،ص:131.

68 ـ نفسه ، ص:131.

هل تعرف اليوم رسم الدار والطللا كما عرفْت بجفن الصّيقل الخلَلا

دارٌ لمـروة إذ أهـلـــي وأهلُهـــم بالكانسيّة ترعى اللّهـــو والغـزلا

حيث يعقب على موقع «دار» قائلا: «فإذا رفعت فالذي في نفسك ما أظهرت ، وإذا نصبت فالذي في نفسك غيرُ ما أظهرت» (69) .

أي الرفع لا يحتاج إلى حذف هنا «حتى تضطر إلى إضمار فعل وهو مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف جوازا لعلم المخاطب كعلم المتكلم (هي دار مثلا)، بينما النصب على إضمار فعل (أذكر أولا انسى مثلا)، وشتان ما بين نية الخطابين، فالأول (الرفع) خطاب مباشر، والثاني(النصب) خطاب غير مباشر او خطاب مقطوع» (70).

إننا لا ننكر ان اللغة العربية تسع لما اطرد، وتتفتح لما شذّ أو شرد، ولا نجهل أن العلماء المبكرين منذ القرن الثاني الهجري قد تجادلوا وتمذهبوا في مثل هذه المسائل منبّهين أن في كلام العرب:

1) أسماءً متفقة في الإعراب مختلفة المعاني مثل: إن زيدًا أخوك، ولعل زيدًا أخوك، وكأن زيدًا أخوك،...

2) وأسماء مختلفة الإعراب متفقة المعاني مثل: ما زيد قائمًا وما زيد قائم، وما رأيته منذ يومين ومنذ يومان، ولا مالَ عندك، ولا مالٌ عندك، وما في الدار أحدًا إلا زيد ، وما في الدار أحد إلا زيدًا، إلى جانب تراكيب أخرى مثل قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الأمر كلّه لله** ﴾ و﴿ **إِنَّ الأمر كلّه لله** ﴾(حيث قرأ أبو عمرو ويعقوب «كله» بالرفع على الابتداء، والباقون نصبًا على التأكيد) وكذا: ليس زيد بجبان ولا بخيل ولا بخيلاً،... وهذان النسجان من نسوج كلام العرب الشائعة التي لا يستطيع لغوي أو نحوي أن يردها، ولكن هناك عادات وأعرافًا خارجية ليست ما فوق لغوية تؤثر في تحديد كثير من التواصلات في اللغة العربية كما جاءتنا طبيعية ، وعلى المتواصل بها وفي إطارها ان يرعاها نيّة وعملا حسب المقام.

69 ـ الكتاب: 1/282.

70 ـ في رحاب اللغة العربية ،ص:127.

وكم كان السيد البطليوسي(444-521هـ) صائبًا وهو ينصح الكاتب أن يُنزل الناس منازلهم للمرتبة التي تليق بكل واحد منهم، فهو يرى أن العادات تختلف باختلاف الأزمنة، حتى إن كل أهل زمان يستحسنون مالا يستحسنه غيرهم: «وللنساء مراتب في مخاطبتهم، ينبغي للكاتب أن يعرفها، فمن ذلك لا ينبغي للكاتب أن يدعو لهنّ بالكرامة، ولا بالسعادة، لأن كرامة المرأة وسعادتها موتها عندهن، ولا يقال للواحدة منهن: أتم الله نعمه عليك لأنهن ينكرن ان يكون شيء عليهن، ولا يقال: جعلني الله فداءك، ولا قدّمني إلى الموت قبلك، لأن هذا يجري مجرى المغازلة، ولا يقال لواحدة منهن: بلّغني الله أملي فيك لاستقباحهنّ ان يكون شيء فيهنّ، وبالجملة فينبغي للكاتب إليهن أن يتجنب كل لفظة يقع فيها اشتراك ويمكن أن تُتأوّل على ما يقبح» [71].

إننا لا ندّعي جديدًا فيما أثرناه في هذا الموضوع الذي يترجم عن قراءات تراثية وحداثية استغرقت معنا أعوامًا ، كل ما نشعر به أننا حاولنا أن نلفت انتباه الجيل العربي الصادر بضرورة التعمق في لغة لا تبرح تراكيب فيها مهملة أو غير مستعملة استعمالا عامًا ولفت نظره أيضا بأنه يملك لغة هو جدير بالفخر والاعتزاز إذا كان متكلمًا بها وينتمي إليها في وقت تعالت رطانات جدثية نائمة تريد عبثًا أن تجاريها وتنافسها في كل موقع ضربت فيه بجرانها يعضدها ويؤزّرها في ذلك نظم ربّاني لا قبل للُغة أخرى قديمة أو حديثة ببنائه وبيانه.

71 ـ الاقتضاب في شرح أدب الكاتب ، ق1/141-142 السيد البطليوسي، تحقيق: أ: مصطفى السقا والدكتور حامد عبد المجيد،ط:1981 الهيئة المصرية العامة للكتاب.